رواية «خزي» لكويتزي: أو بلاغة التصوير بالتناوب

محمد أنقار*

■ رواية «خزي» أو «عار» كتاب آسر صاغه روائي من صنف هؤلاء الكتاب الذين يجعلون من العلة أو نقطة الضعف بطولة. هذا الصنف من الروايات نادر في العالم العربي حيث نجد البطولة تعني الفحولة والهيمنة وعدم الاعتراف بالخور الإنساني.

وراء هذه الرواية الجادة ذات الإيقاع البطيء فلسفةٌ. والحق أني لم أشعر في أية لحظة وأنا أقرأ هذا العمل بأن جون كويتزي ليس فيلسوفا.بل أكثر من ذلك وجدته يتميز، إلى جانب الفلسفة بالقدرة على التصوير والتحبيك وتنظيم السرد.أي القدرة على صب الفلسفة في قوالب جميلة وجذابة. وتلك هي عظمة الروائي الأصيل.

يقر كويتزي بأن الإنسان خلق هكذا بعلله وتناقضاته، ولا داعي بعد ذلك إلى تصوير التحولات الكبيرة من حال إلى حال، من السعادة إلى الشقاء، أو من الفقر إلى الغنى كما يحلو لعديد منا أن يفعل في سرده. وكأن كويتزي يود أن يقول لنا إن الإنسان يتغير لا محالة، ولكن يتم ذلك ببطء شديد.أو إن الإنسان يتغير في إطار علته أو تناقضاته فلا يكاد يخرج عنها. كذلك شأن البطل دافيد الذي لم يتغير في العمق كثيرا طوال صفحات الرواية.أو إنه تغير ولكن وهو ينحدر نحو الهاوية.

و ثمة درس فلسفي آخر تمثله لوسي ابنة الأستاذ دافيد. إن هذه المرأة الغريبة الأطوار ترفض رعاية أبيها الزائفة وتربط مصيرها بالسود على الرغم من أنهم آذوها بعنف. كأنه قدرها الذي لا بديل عنه.لكن كويتزي يصوره كأنه خيار في الحياة يختلف عن خيار الأب الخاضع هو الآخر لقدر مباين. وبمثل هذا العمق الفلسفي يحاول كويتزي تجاوز المعضلة العنصرية الشائكة. ويظهر لي أن الرواية في عمومها تدور حول هذين الخيارين الكبيرين:

1 ـ قدر الأب الفاشل الساقط في الهاوية.

2 ـ القدر المحتوم الغامض الذي هيمن على لوسي في حياتها مع السود، لكنه يفتح لها أفاق المستقبل على الرغم من المعاناة والاغتصاب والتنازلات.

دافيد أستاذ فاشل على جميع الواجهات ؛ مهنيا هو مطرود من الجامعة لاغتصابه إحدى طالباته. وفاشل عائليا؛ فقد طلق مرتين، ورفضته ابنته لوسي التي فضلت العيش وحيدة في عزلة نائية. وهو فاشل اجتماعيا حيث رفضته المومس ثريا والطالبة ميلاني التي اغتصبها، ورفضه زملاؤه في هيئة التدريس.

دافيد رجل شبقي يعي جيدا طبيعته الخاصة لكنه لا يستطيع التخلي عن صفاته الجوهرية، ذاك قدره. وفي الوقت الذي تقر فيه رواية كويتزي بتلك القدرية فإنها لا تفتأ عن تشريحها. إنها تفعل ذلك مع دافيد نفسه، وكذا مع زوجته روزاليند وابنته لوسي ومغتصبيها، وحتى مع بيف شو فاعلة الخير. ومن البين أن جانبا من بلاغة الرواية يكمن بالذات في تصوير هذه الثنائية: «قدرية» من ناحية، وإمعان في «التشريح» من نواح أخرى. وأظن أن التصوير كان سيختلف مع كاتب آخر من غير طينة كويتزي. (ماذا سننتظر على سبيل المثال من روائي إيديولوجي آخر تعطى له فرصة التعامل مع شخصية قدرية؟).

الحق أن الأستاذ دافيد ليس فاشلا على كل الواجهات. هكذا يمكن أن يقول قائل وهو يشير إلى العلاقة الجنسية بين دافيد والمعالجة الرحيمة بيف، وكذا العلاقة بينه وبين الكلاب العليلة عامة وتلك المرشحة للقتل بالحقنة بصفة خاصة. بيد أن حقيقة الأمور ليست كذلك. ففي الواقع سيحقق دافيد التعاطف مع فاعلة الخير بيف شو وسيجامعها،و لكن دوما في سياق العلاقة المحرمة. إن بيف امرأة متزوجة، ولا مشاكل لها مع زوجها. وحتى عندما يصور الروائي العملية الجنسية بين كائنين متقدمين في العمر لا يستند في واقع الأمر إلى عنصر الرغبة الحقيقية. إنها عملية عابرة تتم دونما حب، لذلك يكون الفشل في خاتمة المطاف هو المصير المحتوم لهذه العلاقة.

كما يمكن أن يشير القائل المعترض إلى المشاركة الوجدانية التي تتحقق بين الكلاب المرشحة للموت والأستاذ دافيد الفاشل الأبدي. والواقع أن المشاركة الوجدانية تتحقق بالفعل، ولكن في سياق الهزيمة التي لا مفر منها. إن دافيد في الصورة الأخيرة ومن الرواية يقول ذات مرة عن عملية سياقة الكلب المريض نحو الموت إنها عملية «بسيطة»، لكن هذه البساطة تواكب إقراره بأن مصير المخلوقات صعب ويزداد صعوبة في كل مرة، إنها نغمة الهزيمة القدرية التي لا رد لها. وبذلك تغدو المشاركة الوجدانية مع الحيوانات مشاركة كئيبة، استسلامية، على طريقة همنغواي.

لم يصل دافيد إلى تحقيق المشاركة الوجدانية مع الكلاب إلا بعدما فشل في تحقيقها مع البشر. أما مع نفسه فقد كان منسجما غاية الانسجام. لذلك لم يذعن لطلب لجنة التقصي في الجامعة ورفض الاعتذار عما ارتكب. لقد اعترف بذنبه. لكنه رفض تقديم الاعتذار لزملاء أنداد شكلوا أعضاء اللجنة. بيد أن الضريبة التي سوف يؤديها دافيد مقابل تلك العزة بالنفس ستكون فادحة جدا: الموت مثل الكلاب. وتجسّد رواية كويتزي فداحة تلك الضريبة ببلاغة رفيعة للغاية.

ففي خاتمة الرواية يصور الراوي عملية انقياد الكلب المريض نحو حقنة الموت، كان الأمر يتعلق بكلب وحيد لا رجاء في شفائه. لكن كل القرائن والسمات الروائية المعروضة في الصفحات السالفة توحي بالتوازي أو التناوب بين مصير ذلك الكلب وحياة دافيد، حتى إذا ما واجهتنا الصورة الأخيرة من الرواية أدركنا في يسر أن الراوي يقصد كذلك موت الأستاذ نفسه.

إن الحياة قاتمة بالنسبة إلى دافيد. أما الراوي فلا خيار له سوى مراوغة تلك القتامة بواسطة بلاغة التصوير.

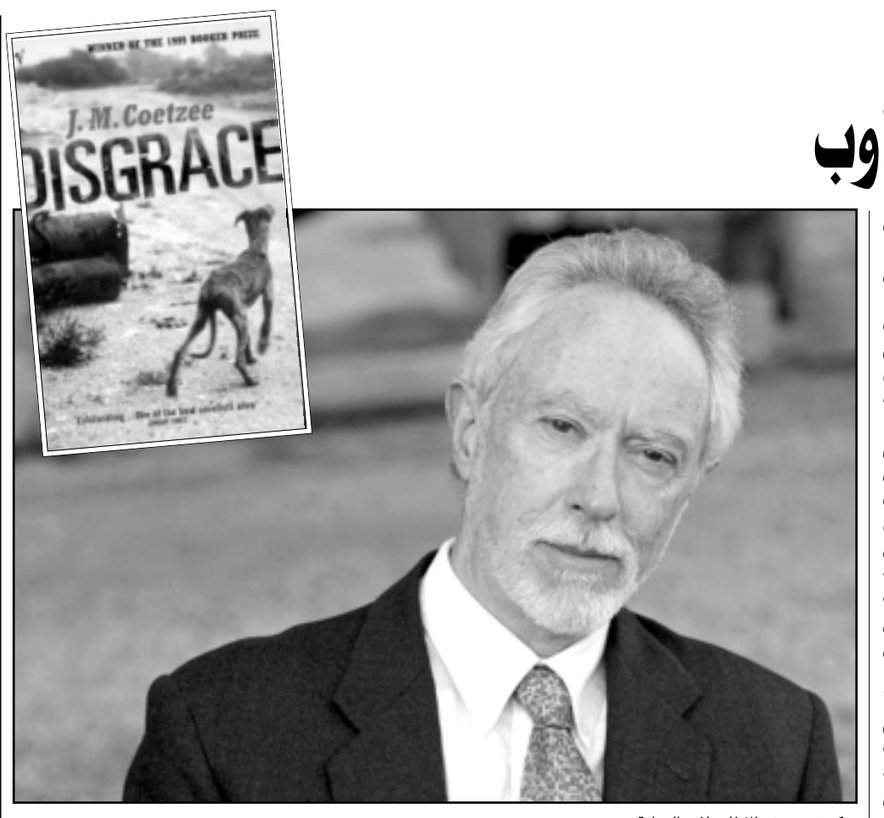

كويتزي وفي الاطار غلاف الرواية

* ناقد من المغرب
mohamedanakar@yahoo.es

«باب الفتوح» للشاعر أحمد العمراوي: الحلم والمومياء

خالد البقالي القاسمي*

■ أن تحلم بالمومياء فذلك يعني أنك تستشرف حقيقة أنطولوجية لا يمكنك المساهمة في تحديد أقواسها المعدة بماء الخلود، لأن المكنات ليست كلها قابلة للتحقق الفعلي، وبما أنك لا تمتلك لمومیائك مرجعية مضبوطة فإن حلمك بها يتساوى ضمنه السلب والإيجاب حيث لن تسعفك كل الأبواب التي تعرف والتي لا تعرف إلا في تعميق اللوعة والغياب، فلكي تعرف بابك المقصود عليك بكل صدق أن تتجرد من بقايا ذاتك، يقول نيتشه: «أحب من تفيض نفسه حتى يسهو عن ذاته، إذ تحتله جميع الأشياء فيضمحل فيها ويفنى بها ».

على نفس الوتيرة من الإبداع والإنتاج الدؤوب يصدر الشاعر «أحمد العمراوي» ديوانه الجديد «باب الفتوح »، وهو ديوان يلج بنا الشاعر عتبته ضمن باب الفتوح، وينتهي أو يحلم أنه ينتهي بنا إلى أبواب الفتوح، والحديث عن باب أو أبواب الفتوح حديث ليس بالسهل أو الهين، حيث هذا التعالق المثير بين الأبواب والفتوح، فالفتوح انفتاح وانبلاج وإشراق، ويدل هذا على حركة ضمن علاقة علية واضحة وملموسة بين الأبواب والفتوح، ثم إن الفتوح تفتح باب الشفاء والبركة والعلاج، هذه العلاقة العلية لا مبتدأ ولا منتهى لها، فمن السابق واللاحق في علاقة أبواب/ فتوح؟ فأنت لا تبذل بذل الفتوح إلا بعد أن تلج عتبة الشيخ، هذا الشيخ يصير شيخك، بابه لا يفتح إلا للمخصوصين، فليس جميع الأبواب تفتح في وجهك ومن أجلك، «لمن توضع الأبواب؟ للخاصة؟ أم للعامة؟ ـ الديوان ـ ص48 »، ومن ثمة فإن ولوج ودخول الباب يمنحك فضل الفتوح المؤدي إلى البركة واليمن والسعد، والفتوح يمنحك فضل عبور معكوس للباب، ولكن العبور هذه المرة ليس كالعبور الأول، تذكر بأن العلاقة العلية بين الأبواب والفتوح هي التي تفسح لك مجال الحلم ومجال الشعر بالوقوف: «خلف المومياء المثلومة الجبهة والأظافر. ـ الديوان ـ ص 112 ».

يسافر الشاعر بنا، لا بل يحلق بين سماء باريس وسماء فاس، فهو يرى ذاته ممتدة بأجنحة متعددة مبسوطة بين فاس وباريس تطير و: «تلامس الخيال بالخيال. ـ الديوان ـ ص 125 »وتحتضن جميع الأبواب كأنها مومياء فرعونية ماردة ممسوخة في صورة طير الرخ، انتصبت من باطن: «أهرامات تستعصي على العد. ـ الديوان ـ ص11». بقوة متوثبة جبارة تريد أن تثأر من حمأ الانغلاق والانسداد والانعزال، كما تريد أن تشجب كل من يلقي بظله بين الأبواب وفتوحاتها، كأن الشاعر يعيش طقوس جذبته الشعرية لتوأمة الأبواب، ليس أبواب فاس وأبواب باريس بل أبواب الكون، لأنه واهم من يعتقد أن الأبواب في باريس هي غيرها في فاس: «احلم فالفرق بين الحالم والواهم أطول من يوم معلوم في كتب. ـ الديوان ـ ص6». إنها مختلفة ضمن تماثلها، ومتقاربة ضمن تباعدها، إن صورها هي غير وجوهها هي غير حقيقتها هي غير تاريخها، فالأبواب في باريس عبارة عن: «نقط في نقطة تتداخل أسفل تلابيب الحال. ـ الديوان ـ ص40 »، أما في فاس فإنها: «تلامس شعاعا بين مكة وحضرة شعرية. ـ الديوان ـ ص125 »، لا يستحضر الشاعر أبواب باريس إلا وهي ترميز لأبواب فاس حيث يعيش لوعة ذاته المنشطرة بين الأمكنة: «طول قامتها يذكرني بأشجار بلادي. ـ الديوان ـ ص54 »، كما لا يستحضر أبواب فاس إلا وهي استبدال لأبواب باريس حيث يستعيد لحظات: «الابتسامات المعدلة وراثيا. ـ الديوان ـ ص58 »، ولا يستحضر الشاعر أبواب فاس وأبواب باريس إلا (يقيم الشاعر في مدينة الرباط) من خلال أبواب الرباط، أو من خلال: «أبواب الدنيا وأبواب الله. ـ الديوان ـ ص65 »، إنها كونية الأبواب: «والكون واحد. ـ الديوان ـ ص9». بل إنها في الأصل تراجيديا الأبواب المواربة والمتمنعة التي لا تنفتح إلا لمن ملك أسرارها حيث: «ينفتح الإسم، ينفتح الفم، ينفتح الباب. ـ الديوان ص60 »، لا يستحضر الشاعر في الحقيقة إلا فتوحاته المنبثة في أعماق ذاته التي تدفعه لولوج أبواب الشعر والقريض، ولذلك تشابهت لديه جميع الأبواب في اختلافها وتمازجها من فاس إلى الرباط إلى باريس، حيث انشطرت ذات الشاعر ثم توحدت وانصهرت ضمن كينونتها ووجودها وفق ناموس الحال والوجد كما: «تنصهر المادة في كبد الروح. ـ الديوان ـ ص 99 »، فلم يعد الشاعر يرى ويحس إلا بالضوء النازل الذي يلج الأبواب لكي يمارس فعل الإشعاع على جميع ألوان الفتوح حتى تبتهج جميع اللحظات احتفاء بتوحد الأسرار والأقدار والمصائر والأشعار: «جمع يتوحد في وحدته. ـ الديوان ـ ص110 »، يقول: جلال الدين الرومي:

«ما أسعدنا لحظة نتحد فيها جميعا في القصر،
بصورتين ووجهين، ولكن النفس واحدة أنت وأنا
فإذا تخلصنا من ذواتنا فقد نتحد في الوجد فرحين»

الأبواب في فاس تستدعي الأبواب في باريس، أبواب فاس رديفة الفتوح، فهل أبواب باريس هي كذلك رديفة قدرها؟ بناء الأبواب في فاس مقاصده محددة ومعروفة حيث روح التاريخ وعبق الحضارة وهاجس البقاء والخلود تترى متتابعة لإثبات أسرار التجذر، أما أبواب باريس فإنها: «حياة أخرى لحياة أخرى. ـ الديوان ـ ص120 »، لقد توحدت الأبواب في ذات الشاعر حتى أصبحت كونية، كلها أبواب الفتوح: «ما أوسع أبواب الله. ـ الديوان ـ ص25 »، لا مجال للمقارنة بين الأبواب وإلا فإننا سوف نقع في وهم الخداع، القدامة والحداثة هي التي تجمع بين الأبواب وتهب لها وظيفتها في الفتح والفتوح والانفتاح، يعي الشاعر إذا جيدا هذه الصيغة عندما يتوحد مع الأبواب ويميز بإصرار بين الحلم والوهم: «الحلم طريق المستقبل، الوهم طريق المارستان. ـ الديوان ـ ص 62 ».

أبواب الفتوح لدى الشاعر في صورتها الكونية لا تحتمل غياب حضورها، كما لا تحتمل حصر ذلك الحضور، إنها لا تحتمل في الحقيقة الإقصاء، حيث لا يمكننا أن نفترض أن خلف بهائها الجلي يمكن أن يظل شيء ما خافيا عن الأنظار، لأن ما خلفها، ما وراءها، ما بداخلها محايث تماما لحقيقتها، إنها لا تترك أسرارها في الظل، في الصمت، إذ هي تشغل باستمرار حيزها المستقل، إنها في الحقيقة لا تحتمل التكرار والتعدد، حيث ليس هناك خفاء في تجليها، إن هذا يعني في الأصل أنه لا وجود إلا لباب فريدة واحدة حيث لا مجال للتعدد والكثرة، فالباب المقصودة هي ملجأ الجميع، إنها: «باب الأبواب تسح لبهاء الشعر. ـ الديوان ـ ص47 »، فالشاعر يلج الأبواب عبر باب واحدة فريدة جعلها هدفه ومقصده في كل أحواله الظاهرة والباطنة من أجل خلود الشعر حيث: «لا قفل في الظاهر، والباطن لمعة قلب. ـ الديوان ـ ص46 ».

يعمد الشاعر إلى تكثيف المعنى عن طريق تشغيل صيغ للوفرة تفي بغرضه الذي يرومه من خلال تأويل أفعال فتح وولج ووجد، حيث فعل فتح الباب لأنها باب الفتوح، فهي تغري بالفتح لأن شيخ الشيوخ دعا بل أمر بذلك، فلا مقامات ولا مشاهدات ولا بركات ولا فيوضات إلا بالفتح.

فعل ولج يقدر بحضور مضمون خفي مبني على تميز مكانة الباب المولج أو الباب المشرع الذي سيغدو بعد العتبة مفيدا ومرغوبا، ولامحدودا ولامتناهيا، أما فعل وجد فإنه يساوق في دخيلته بين الظاهري والباطني، حيث الداخلي ليس كالخارجي، والذات في فعل وجد لا تنبهر بالسهولة المفرطة التي تفترضها الفتوحات بعد فتح وولج بل إنها تظل وفية للخيط الرفيع الرابط بين الخارج والداخل، بين المعرفة والمشاهدة لأن: «بين المعرفة والمشاهدة مسافة ضوئية تتقاطع بحبات الدم وصوت القابلة وخمر اليوم السابع. ـ الديوان ـ ص141 ».

يكون الباب تارة مذكرا وتارة مؤنثا، وهذا ليس صدفة أو سياقا، بل يتعلق الأمر بالفتوحات والفيوضات التي تنهال على الذات، يتعلق الأمر بتلك الدلالة اللاشعورية التي تستدعي تأويل الباب أو الأبواب واستدعاءها رمزيا في صيغ دينامية كالقدر، أو المصير، أو الخلاص، فالأبواب نسخ من أصل واحد، حيث في القديم كان هناك باب، ولقد طال النسخ، تغير وتبدل في الشكل، والنمط، والصورة، والوظيفة، وربما استدعى الأمر الاهتمام بتسلسل الأبواب ومدى ترابطها واستنادها على بعضها البعض، من الطبيعي أن تكون الأبواب مختلفة في تشابهها، وموضوعاتها غير متطابقة عبر الزمن العربي والزمن الأعجمي.

استحضر الشاعر في ديوانه أبواب فاس مستلهما الزمن وعبق التاريخ، وهو الزمن الماضي القديم الذي نتوهم بأنه الزمن الوحيد الذي أصبحنا نمتلكه، والشاعر هنا بصدد الوقوف عند مبحث الأصالة الذي ما زلنا لحد اليوم نبحث عن خصائص تميز الخطاب المعرفي المرتبط بها ونذلك في ثنايا المضامين الفكرية التي أنتجها أسلافنا وحتى محدثونا، ولا يستحضر الشاعر أبواب فاس وعراقتها ومعها الأصالة والتراث إلا من أجل الحديث عن أبواب باريس، باريس التقدم والتطور والحداثة حيث يوجد من: «يقود الحكمة من قلق ابن رشد إلى انضباط الكوليج دو فرانس. ـ الديوان ـ ص33 »، فالشاعر ينشد استعادة أصالتنا بحداثة الغرب: «حاسوب الوقت يشبه أنملة التاريخ، فأرة تهاب فيروسها. ـ الديوان ـ ص44 »، على أبواب فاس أن تلتحق بأبواب باريس، ولكن كيف السبيل؟ أبواسطة النفخ؟

يرتبط النفخ بوظيفة بالغة الحساسية، لأن فعل النفخ يتحدد ضمن سياقاته الوجود وعدمه: «مزمور للشيء ونقيضه. ـ الديوان ـ ص31 »، فبالنفخ يوجد الوجود، وتوجد الموجودات، وبالنفخ كذلك يفنى الوجود وتفنى هذه الموجودات: «فعل النفخ يمتزج مع النفس. ـ الديوان ـ ص32 »، النفخ بالروح ينتج الروح والوجود، وينتج من يتحمل عن البشرية جميع الآلام فهو: «مزمور لصخرة الخلاص. ـ الديوان ـ ص30 »، والنفخ في الصور يمحي أثر الوجود بعد عين، إنه الفناء بعينه أو هو: «مزامير للذبح الجماعي، للدفن الجماعي. ـ الديوان ـ ص30 »، والنفخ في الصور ينتج الوجود الأزلي حيث: «يزدهر المخلوق الأعوج ـ يستقيم ـ يكبر. ـ الديوان ـ ص31 »، يراهن الشاعر إذا على فعل النفخ في مدلوله الوجودي من أجل العودة بالأبواب وبالتراث وبالشعر إلى الحياة والنضارة والامتلاء عن طريق المزج بين مزامير ونفخ: «القدامى والمحدثين الباحثين عن عقلنة اللحظة. ـ الديوان ـ ص29 ».

يراهن الشاعر على العلاقة الاستبدالية بين الأبواب والفتوحات، وهي علاقة تدور حول محاورها بصيغة استعارية حيث الأبواب فتوحات، والفتوحات أبواب، وفي النتيجة تؤلف جميعها وفي امتزاجها الشيء نفسه، يكفي أن يقنع الشاعر متذوقيه بأنه فعلا يحلم ولكنه غير واهم، فالحلم هو: «بداية القصيدة. ـ الديوان ـ ص18 »، أما الوهم فإنه: «عديم اللون والرائحة. ـ الديوان ـ ص16 »، وبين قدر الحلم والشعر، وبين قدر الشعر والمومياء نجد الشاعر مع مطلع قصيدته/ ديوانه قابعا: «ممدد العين إلى الأعلى ـ تحت مشارف المومياء ـ المومياء ذاتها. ـ الديوان ـ ص116».

* كاتب وباحث من المغرب

■ «باب الفتوح» ـ ديوان شعري ـ الشاعر: أحمد العمراوي ـ الطبعة الأولى ـ 2006 ـ دار الأمان ـ الرباط ـ المملكة المغربية.

قص

سلالة الحقد.. سلالة الحب..!

(رسالة الابن الى أبيه)

سليم مطر*

أبي العزيز،
تحية ذكرى وشوق،

■ رغم موتك منذ اعوام طويلة، اعرف انك قادر على سماعي وقراءة رسالتي هذه. اتتذكرني.. انا ولدك الطيب المشاكس. اود فقط يا ابي ان ابشرك، بأني بدأت اسامحك. ها انا في اعوام النضوج، بدأت ادرك سر قسوتك معي. كل ما كنت تكيله لي من عذابات، كانت في الحقيقة بعضا مما تلقيته انت من عذابات الاهل والزمان. كنت فيما مضى، عندما انظر لآثار ركلاتك وصفعاتك وحروقك وشتائمك ومذلاتك، في نفسي وبدني، كنت ابكي يا ابي، ابكي حزنا على نفسي. الآن انا ايضا ابكي، لكن ليس من اجلي انا بل من اجلك انت، لأني عرفت انك عندما كنت تعذبني كنت بالحقيقة تعذب نفسك التي لم تعرف غير الحقد والاذلال. اعرف انك كنت تحبني، وكنت تبكي الما بعد كل حفلة عذاب واذلال تعرضني لها. اعرف يا ابي اني كنت احب ابنائك لك، ولهذا كنت اكثرهم تعرضا لعذابك.

لقد اخبرني اهلي، انك في آخر لحظات احتضارك على فراش الموت، كنت تردد اسمي شوقا واسفا لان مجاهل المنفى قد سرقتني منك، ولم يتح لك الموت ان تعتذر مني وتشرح لي سر عذاباتك.

الآن ادرك يا ابي، ان تعذيبك لي نابع من عذابك انت. نحن سلالة حقد يا ابي، اليس كذلك؟ اتذكر، رغم طفولتي، كنت ادرك انك كنت تنزف سيولا من العتاب المر لابيك الذي كان مثلما انت معي، لم يرحمك، وهو بدوره لم يتلق رحمة من ابيه. كنت، بعد ان يهدأ غضبك، تناديني، تعتذر لي، وتغسلني وتداوي ندباتي وتقدم لي الطعام، ثم تنشج بغناء جنوبي حزين يجعل الدموع تترقرق في عينيك.

نعم يا ابي، كنت بحقدي عليك، مخلصا لك، بحقدك انت على ابيك، الذي كان هو ايضا مخلصا بحقده على ابيه. نحن كما ترى يا ابي، سلالة وفية لحقد وعذاب واذلال..

عرفت يا ابي، ان جدي الخامس، في القرن الثامن عشر، هو اول من اسس سلالتنا اللعينة: كان شابا متمردا يعيش في البصرة، وقد قتل أباه خطأ، في لحظة غضب، بعد ان رفض ان يساعده على الزواج بحبيبته التي تزوجت غيره. اصيب بلوثة من الغضب على الحياة ومشاعر اثم ضد الذات وضد كل ما هو عزيز. هرب الى اهوار العمارة، وهناك دخل في خدمة الشيوخ وعاونهم في اضطهاد الفلاحين، حتى اصبح (ملا) و(تاجر حبوب) وتزوج العديد من النساء، وخلف عشيرة من الابناء والاحفاد.. لكن حقده على ذاته، كان يجعله يحقد على ابنائه، وخصوصا على اقرب ابنائه له. هكذا تكونت سلالتنا..

هذه هي سنة الحياة، احفاد يتوارثون الحقد عن اسلاف عاشو الحقد.. كما هناك على الارض، ثمة احفاد يتوارثون الحب عن اسلاف عاشوا الحب..

امضيت السنوات وكان اشد ما كان يرعبني يا ابي ان اكون شبيهك، وريثك في الحقد على الذات والحياة. انت هجرت اهوار الجنوب وعشت في بغداد، وكان حقدك على ابيك هو محركك في الحياة. اصبحت عسكريا وامضيت عمرك متنقلا من حرب الى حرب. وعندما هدك العمر، فتحت حانوتا بائسا ورحت تمارس حربك على ابنائك، وقد اختارتني الظروف ان اكون خصمك الاول وصار بدني وروحي محط حقدك واذلالك.

اما انا يا ابي، فمثلك، هجرت مستنقعات الوطن، متاهات بغداد ومأوى حبي الابدي، ورحلت الى اوروبا. وامضيت العمر وانا اكافح كي لا اكون مثلك. لكن ذلك الحقد الذي ورثته عنك، كان هنا في كياني، مشتعلا في كل خلية من روحي وبدني، وفي كل ذرة من وجودي.. حقد دام مجنون منفلت بلا حدود، مستحوذ علي مثل عفريت عملاق يخنقني بكفيه بلا رحمة.. نيران الحقد المكبوت هذه، كانت تحرق بي انا، كانت تعذبني.. آه يا ابي، لو تعرف،هنا في اوروبا، بعيدا عن اهوار عذابك وبغداد خيبتك، كم جاهدت واستنزفت وذرفت الدموع لكي اترك حقدي في داخلي. كانت اخبار الوطن، كوارث الحروب واحتضارات الحصار، نفطا يصب على نيران حقدي. كنت اصرخ واصرخ واصرخ متمرغا في الارض لكي امنعه من ان ينفجر ضد اعزائي. كان الليل عندما يحل، تحل معه اشباح ماضي وذكريات آلامي معك، فكنت اخاف من نفسي على نفسي، ومن دون تفكير، كنت اهرب، اهجر الاهل والاصحاب، اثمل واتسكع وحيدا حزينا في الحانات، وعندما احس بالحقد يتصاعد الى حدوده القصوى، كنت ارقص وارقص. لقد خضت جميع حروب اسلافي، قاتلت غزاة تاريخي، خنقت بيدي هذه اعظم الطغاة والجبابرة، نزفت تحت انظاري حشود لا تحصى من الضحايا، وعلى صدري الحزين ذرفت دموعها حشود من العشيقات والاحبة.. كل هذا كنت اعيشه في باحات الرقص، وحيدا مع حقدي، بعيدا عن أصدقائي واحبتي، لكي اجنبهم حرقة نيراني.

***

ولكن يا ابي، بعد تجارب العمر هذه، اود ان أخبرك بألم وخجل، اني قررت ان اخونك، اخون سلالتي، سلالة الحقد تلك..

قررت ان اتمرد عليكم.. ان اخلق سلالتي الجديدة، انا وحدي بعيدا عن حقد الاسلاف وعذاباتهم واذلالهم. قررت ان اخلق حب مستقبلي من حقد ماضيٍ. ان انبت شجرة حبي لاحفادي، في ارض حقد اسلافي..نعم يا ابي، اقسم لك بحقدي الاصيل ضدك، بأني منذ الآن فصاعدا سوف اخلق سلالتي حبي الازلية.

اعلم يا ابي، ان هذا القرار لم يأتني هكذا فجأة، بل توصلت اليه بعد معاناة وحشية كادت ان تودي بحياتي. هنا في منفاي في اوروبا، قد امضيت اعوام التسعينات جميعها، في متاهات من الجنون المكتوم. حتى بلغت العذابات ذروتها حين بدأ ذلك المرض الخطير يجتاح كياني ويتركز في حنجرتي. كم هي مسكينة حنجرتي، كم تحملت من حرقة صرخاتي، حشرجة غضبي، حمحمة حسراتي، عذابات انفصامي بين نفسي المتمردة وعقلي المؤدب. بقيت سنوات وانا اواري بحة حنجرتي واعلل الامر بأنه علة عابرة.. حتى أتى اليوم الذي اضطررت فيه إلى مواجهة تلك الحقيقة المرعبة: (سرطان الحنجرة)!!

حينها فقط، ادركت الحقيقة التي امضيت السنين الطوال وانا اهرب منها:

ـ اما ان اواجه حقدي واتقبله وادجنه مثل حيوان متوحش.. اما ان اتركه هكذا يجول ويصول في دواخلي حيث تمكن من القبض بمخالبه على حنجرتي بهيئة سرطان لا يرحم.. وهذا يعني لا محالة موتي المحتم..

لم يكن امامي غير ان استعين بتلك الطاقة الجبارة التي كنت استصغرها بسبب اختباصي بحقدي: (طاقة الحب..).. كما نستعين بالمياه لاطفاء النيران، قررت ان استعين بالحب لإطفاء الحقد. وإن نجحت ان اطفىء نيران الحقد يقينا حينها ستنطفئ معها نيران السرطان المتأججة في كل بدني والمتمركزة في حنجرتي.

عرفت أن مشكلتي، اني كنت افكر فقط بمحبتي للآخرين.. اما انا نفسي ذاتي، فكنت اتركها ضحية لحقدي.. كنت اعتقد ان توجيه نيران حقدي ضد ذاتي هو السبيل الوحيد لتجنب احبائي هذه النيران. لكني بعد اكتشاف المصيبة فقط أدركت ان هذا كان نصف حل، وها انا اواجه نتائجة المميتة. ان الحل الحقيقي، يكمن بمواجهة الحقد كله، بطاقة الحب كله، وخصوصا حبي لذاتي وحبي للحياة بأكلمها. فمن دون حب الذات لا يمكننا ابدا ان نحب الحياة ومعها احبتنا وناسنا. ان التضحية بالذات، لا بد ان تنتهي بالتضحية بالحياة ومعها ناسنا واحبتنا. فما معنى محبتي لاهلي وناسي، إن كنت سأفقد حياتي؟! ان محبتي لناسي تقتضي حبي لذاتي، كما حبي لذاتي هو مدخل حبي للناس وللحياة.

بالتدريج قادتني هذه الحقيقة، الى حقيقة خفية كانت من شدة الوضوح اني لم انتبه لها: ان حقدي كان موجها ضد ذاتي، ليس فقط بدافع اخلاقي حبا بأحبائي، بل لأني في اعماقي، كنت اعتقد بأني مجرم آثم، وأن كل عذاباتك يا ابي التي كنت تصبها على كياني، كانت بسببي أنا.. أنا الجلاد، انا حمال الخطيئة الاولى ومسبب عذاباتك يا ابي، واني كنت استحق عقابك واكثر.. نعم يا ابي، ان جريمتك الكبرى ضدي، لم تكن فقط لتعذيبك لي، بل لأنك نجحت بصورة باهرة ان تقنعني، وانا الطفل الطيب البريء، بأنك تتعذب بسببي انا، بسببنا نحن ابناءك.. ما زالت حتى الآن صرخاتك تصدح في اعماقي وانت تشكو الى الناس والى الله بأننا نحن ابناءك نسل كفر وعار لأننا نتنكر لتضحياتك من اجلنا، وانت الرجل الفقير المسن، تكد ليل نهار من اجل اشباعنا، ونحن لا نكف عن خيانتك.. طبعا كل هذه الافكار كانت محض خيال من قبيلك، فنحن بالحقيقة كنا ضحيتك، لأنك انت نفسك كنت ضحية لنفسك ولسلالة الحقد التي نسلتك.

اذن بالتدريج، وقبل ان اغفر لك يا ابي، بدأت اغفر لنفسي واقنعها بأني ابدا لم اكن أنما ضدك. هكذا مع الايام تمكنت من التصالح مع ذاتي، ثم التصالح معك يا ابي، ثم مع الحياة جمعاء. مع ادراكي لهذه الحقيقة، بدأ احساسي بذاتي وبالحياة يختلف بالتدريج.

حينها فقط، بدأ يسري في كياني نوع من الشعور بالسلام، كأني لأول مرة في حياتي اشرع بتوقيع اولى معاهدات الهدنة لوقف حروبي ضد ذاتي وضد الكون بأجمعه.

مع الايام، ومع استتباب الأمان في روحي ومع العلاجات الطبية والروحية العديدة التي اتبعتها، بدأ السرطان يختفي من بدني، مع اختفاء نيران الحقد من روحي. منذ اكتشاف المرض، هجرت الخمرة والدخان وعلب الليل واصدقاء السوء، ورحت بين حين وآخر، اعثر على أية خلوة في غابة او عند شاطئ البحيرة، لكي اطلق عنان غضبي الموروث على شكل رقص معتوه وصرخات عاوية كذئب جريح، او اذرف دموع الحزن وانشج في نحيب مر كطفل مهجور، وصورتك يا ابي لم تفارقني ابدا، لكنها هذا المرة لم تكن مغلفة بالحقد وحده، بل راحت تأتيني مصحوبة بعطف وغفران.

هذه هي حكايتي معك يا ابي، ومع نفسي المعذبة. الآن بعد ان تخلصت تماما من السرطان ومن حقدي الموروث، اشعر بأني فعلا قد بدأت حياة جديدة بكل معنى الكلمة. صدقني، احس وكأن حياتي الماضية، قد عشتها في حياة سالفة، او اني سمعتها من انسان غيري.

لهذا يمكنني ان اقولها الآن وبكل ثقة، اني فعلا لقادر على أن انفذ العهد الذي قطعته على نفسي: ان اشرع بتكوين سلالة جديدة، سلالة حب!

الوداع يا ابي، الوداع لك ولأسلافي، ولكم مني كل المحبة والغفران..

جواب الأب لإبنه

ولدي العزيز،

رسالتك قد وصلتني. رغم اني هنا منذ اعوام في عالم الغيب، الا اني ابدا لم انقطع عن التفكير بك ومتابعة اخبارك بين حين وآخر. كنت في كل فرصة، استميح العذر من اله الرحمة، ليسمح لي ان ازورك. لم يكن خيالا طيفي الذي كان يتراءى لك اثناء ثمالتك واشتداد حزنك في ساعات وحدتك الليلية، بل كنت انا حقيقة، روحي انا يا ولدي. كنت بكل ما امتلك من قدرات محدودة احاول ان امسح عنك حزنك واخفف من عذاباتك واشاركك بكاءك المرير الذي كان يعذبني اكثر منك. كنت عندما اعود الى عالم غيبتي، استجير بإلهي ان يساعدك، ان يمنحني الفرصة لكي اساهم بالتخفيف من عذاباتك التي كنت انا مسببها الاول.

كم حاولت ان ازرع فيك افكار الخلاص من وضعك هذا واحتراق ذاتك بنيران شعورك بالاثم. كانت نصائحي يا ولدي التي ابثها في روحك بواسطة طيفي، تؤثر فيك وكنت تأخذ بها، لكن كنت سرعان ما تنتكس مع عودتك للخمرة والتيه في علب الليل.

انت لم تدرك يا ولدي، كم مرة ساهمت بانقاذك عندما حاولت ان تنتحر، فآتي انا واهمس في روحك كلمات الامل والتفكير بأحبتك الذين ينتظرونك.

اسمح لي الآن ان اكشف لك الحقيقة التي لم اتجرأ على كشفها لك الا بعد ان تيقنت من خلاصك التام من مرضك ومن حياتك الماضية: انا الذي طلبت من الله ان يسارع بنشر السرطان في بدنك. حسب معرفتي الجيدة بشخصيتك، راهنت مع نفسي، ان هذه التجربة المرعبة والحاسمة وحدها قادرة على دفعك على ان تحسم موقفك تماما مع شبح الماضي المهيمن علي روحك. ان تثور على هذا الوضع البائس الذي كبلت نفسك في شرنقته الجهنمية.

اثناء المرض لم اكن افارقك حتى لحظة واحدة، كنت معك، اواسيك، اهمس فيك كلمات الامل والمحبة، احثك على التغيير، اردد على لسانك كلمات التفاؤل ومحبة الذات والحياة.

لا يمكنك ان تتصور يا ولدي مبلغ السعادة التي تغمرني الآن وانا اشاهدك هكذا في بحبوحة حياتك الجديدة. انا معك تماما في قرارك بأن تبني سلالة جديدة قائمة على الحب وليس الحقد.

لهذا يا ولدي، قد رجوت الله ان يساعدني كي اساعدك انا نفسي بتحقيق مشروعك، ولقد استجاب الله لدعائي، وها انا ازف لك البشارة التي لم تكن تتوقعها ابدا:

هل تتذكر يا ولدي منذ ليلتين، انك قد عاشرت زوجتك وتمنيت في اعماقك ان يرزقك الله ببنت.. اليس كذلك؟

اعلم يا ولدي لقد استجاب لك الله وزرع بنتا في رحم زوجتك.. واعلم خصوصا ان هذه البنت سوف تكون انا.. نعم انا لا امزح، لقد وافق الله ان تهبط روحي في بدن البنت، لأكون انا ابنتك القادمة.. هكذا اكون انا اول ابناء سلالة الحب.. كما كنت آخر آباء سلالة الحقد، اما انت فتظل الابن والاب، الوسيط الفاصل، الذي انتهت به سلالة عتيقة وبدأت به سلالة جديدة.. الى اللقاء القريب يا ولدي الحبيب.. ويا ابي الطيب..

* كاتب من العراق يقيم في جنيف

«عمارة يعقوبيان» تحقق افضل مبيعات الرواية العربية المترجمة الى الفرنسية

باريس ـ من هدى ابراهيم:

باعت رواية